ناموس النشوء في تقدم العمران

قد انتهى بنا الكلام الى النظر العام في ناموس التقدم الاجتماعي على ما استخرجناهُ من مجرى الوقائع التاريخيَّة وايدتهُ حقائق علم الحياة . وقد ظهر لنا في خلال البحث صحة القضيَّة السابقة وهي ان التقدم في كلا الدائرتين الاجتماعية والحيوية جارٍ على طريقة التلاؤم والتوازُن بين الحالة الداخلية وبين المحيط . فتعيَّن علينا بعد ذلك النظر الخاصّ في مسألتين الاولى وجوه المطابقة والمشابهة بين النشوئين الاجتماعي والحيوي والثانية الوجوه التي يختلفان فيها

اولاً ان النشوئين كليهما يتفقان في ناموس النشوء الكوني الشامل الذي استخرجهُ الفيلسوف سبنسر وهو ان التقدُّم يقوم بادئ ذي بدء بامرين وهما اجتماع طوائف قليلة بسيطة التركيب وانضمامها قبائل اوسع حدودًا واكثر تركيبًا في وظائفها وعلائقها ثم التدرُّج في زوال المبادىء الاخلاقية المائلة الى التفرُّق والانفصال مع تغلُّب المبادىء الآيلة الى الانضمام والتلاحم

ثانيًا ان النشوئين كليهما يشتركان في ان ارتقاء البسيط الى المركب يقوم بالتقدم من الصور المتماثلة المطلقة الحدود الى الصور المختلفة المحددة البناء والوظيفة

وقد اوضح ذلك العلاَّمة السر هنري ماين في بحثهِ الاجتماعي بقولهِ ان العائلة في ازمان التاريخ الاولى كانت هي مركز العقد الاجتماعي لا الفرد كما هي اليوم . فكان كبير كل عائلة في منزلة ملك مستقل على وجه بسيط يجمع في شخصهِ وظائف الملك والكاهن والقاضي ومجلس القضاء . ومع ذلك لم يكن ممتازًا عن اولادهِ وزوجاتهِ واخوتهِ الذين هم رعيتهُ في القيام باعمال المعاش كالحفر والنجارة والحياكة وما شاكل ذلك . كذلك كان حال الصناعة في امر البساطة والتماثل . ففي القبيلة المتوحشة كانت دوائر الاعمال ضيقة الحدود بحيث كان الفرد يقوم بنفسهِ بكثير من الصنائع . فكان كل رجل قصابًا وخبازًا وخياطًا ونجارًا وحدادًا . ثم في صعود العشيرة في سلَّم التقدم اخذت الاعمال بالتوزُّع فالتنوُّع فالاستقلال فالاستكمال . فانهُ يظهر لكل ذي المام من طلبة التاريخ انهُ مع تقدم التمدُّن لم يكن اختلاف الاعمال مقصورًا على امر توزُّعها بين العمَّال الكثيرين بل كان شاملاً لطرق العمل واساليبهِ وادواتهِ . ويتضح من المقابلة بين ادوات القرون الوسطى وآلات العصور الحديثة ان الفارق العام بين الفريقين انما هو التقدم باختلاف الانواع والاشكال والصور وتعيُّن الحدود الفاصلة بين المتماثلات . فكل من عارض الآلة البخاريَّة العصرية بالبكرات والبراغي والاحمال وما شاكلها على ما كانت عليهِ لالف عام تبيَّن لهُ ان تجدُّد الاغراض والحاجات الى مصنوعات جديدة انشأ الاختلافات في اسلوب الصناعة

وادواتها. ولا تبرح هذه الاختلافات وتلك الحاجات المتعاقبة رهينة الظهور والتجدُّد يوماً بعد يوم الى ان تبلغ الحضارة اوجها الاعلى ان قُدِّر لها هذا البلوغ

واسلوب هذا التقدم يتجلى ايضاً في تفرُّع دوائر الاحكام والقضاء وتنوُّعها . فلنا من لسان التاريخ اصرح بيان انهُ حين حصول تنوُّع في حكم القبيل كانت بعض العيال ترتقي منفردةً بالسلطة والسيادة وغيرها ينحطُّ الى طبقة السرقة والرعيَّة. ثم كان الترقي السياسي يصعد متدرجاً من انضمام العيال قبائل الى تكوُّن القبائل المتجاورة شعباً الى اتحاد الشعوب المتناسبة وانضوائها تحت لواء واحد سياسي على ما يشاهد في الايام المتأخرة . ويتلو هذا التقدُّم السياسي التقدم القضائي فقد انقسمت الهيئة الحاكمة اولاً الى سلطة زمنيَّة وسلطة روحيَّة وبجانب كل من هذين القسمين كان ينشأُ على وجهٍ غير محسوسٍ سلطة ثالثة تتولى النظر في الامور الاهلية والاجتماعيَّة مما لا تقلُّ اهميتهُ عن تلك وان قلَّت عنها في احكام النظام واجراء القضاء

ثم نرى التقدم واضحاً ايضاً في تنوع الاحكام الدينية والمدنيَّة من المقابلة بين الكهنوت التاريخي القديم وبين الكهنوت في القرون الوسطى بما حدث في هذا الاخير من وفرة تفرُّع الوظائف وتوزعها . وكذا قُل في ما نشأَ من انقسام الاحكام الزمنيَّة الى دوائر تشريعية وتنفيذيَّة وقضائية . وانقسام كل من هذه الاقسام الاصلية الى اقسام فرعية يطول بيانها . وحاصل القول أن التقدم الاجتماعي في امور الاحكام لم يحِدْ عن حدّ الناموس العامّ اي تفرُّع فتنوُّع فاستقلال فاستكمال . او نشوء من بسيطٍ متماثل الصور متداخل الحدود الى مركَّب مختلف الاشكال متميز الحدود

ثم ان اسلوب الارتقاء الاجتماعيّ لا ينحصر في ما ذُكر من امر التفرُّع والتنوُّع وتكامل الانواع بل انهُ بينما هو يسير على هذا السبيل يزداد معهُ استعداد الامة لمطابقة الحاجات الطارئة القاضية عليها بدوام التقدم والارتقاء . وهذه المطابقة تشاهد في ارتقاء الامة العلمي والفكري والادبي كما يرى في دوائر الزراعة والصناعة والتجارة . فان عقليات الامة ومدركاتها تلاحق مقتضيات احوالها الخارجية خطوةً خطوةً وكذلك التقدم الادبي في اسمى درجاتهِ فانهُ ليس الاَّ مطابقة رغائب الفرد للمطالب الصادرة من رغائب افراد جيرتهِ وقبيلتهِ الناشئة مع رغائبهِ المشاركة لها في زمان الوجود

من هذه الوجوه رأينا تمام الوفاق بين تقدم الاجتماع وارتقاء الاحياء الى حدٍّ كان خافياً على قدماء الباحثين في المقابلة بين القبيلين من زمن افلاطون الى عهدٍ غير بعيد فنتقدم الآن الى مزيد البيان في العلاقة بين الامة والمحيط مما يلذُّ دارس التاريخ لذةً لم ينلها في سرد

الوقائع ويلقي في تفسيرها نورًا لم تكتحل عيناهُ بمرآهُ في اسفار الاخبار

قد رأيت ان اسلوب التقدم ذو وجهين وهما اشتقاق الانواع من الاجناس البسيطة واستعدادها لطابقة المحيط المرتقي و يعبَّر عنهما بقولنا ان تنوُّع احوال المحيط هو علة التقدم الاجتماعي ومقياسهُ . ومن ذلك يُستدل على زيادة السرعة في تقدُّم التمدن الحديث عليها في القديم . قال السر تشارلس لَيل " انَّا نرى في ايامنا ان معدَّل التقدُّم في الصنائع والفنون يزيد بزيادة المعارف على نسبة هندسية . وكذلك اذا رجعنا القهقرى تاريخيًّا نرى معدَّل التأخر على تلك النسبة ايضًا . فالتقدم في اثناء الف سنة في الازمنة السالفة يقابل تقدم قرنٍ واحدٍ من القرون الحديثة . . . . "

وبيانهُ انهُ كلما ارتقى الحيّ في كثرة انواعهِ وتفرُّع وظائفها قوي استعدادهُ لموازنة المحيط المرتقي وازداد معدَّل سرعتهِ فيها . وتاريخ التقدُّم الاجتماعي ينطبق على هذه القاعدة كل الانطباق . ففي اوائل التاريخ البشري كان محيطهُ على شدة البساطة لبساطة الحالة السياسيَّة . ولما كان تمازج الشعوب على قلتهِ في هاتيك الازمان لم يكن اقتباس العوائد والافكار المتبادل الاَّ قليلاً . فكان شوط التقدم لذلك على اشدّ البسط . ولكنهُ لما تكاثر التنوُّع في محيط الامم الحديثة اسرع معدَّل لحاقها لهذا المحيط حفظًا للتوازن السابق الذكر . فاليوناني القديم مثلاً لم يكن مديونًا في تقدمهِ لاختراع في بلاد الصين ولا استفادت فلسفتهُ شيئًا من افكار اهل الهند واما في هذه الازمنة المتأخرة فلا يكاد حادث ما يحدث في طرفٍ من اطراف المعمور حتى يذيع امرهُ ويلحق صداهُ سائر الاطراف ويؤثر في محيطاتها الاجتماعية . ولذا نرى الآن ان محيط اوربا المادّي الحديث ممتد التأثير الى قسم عظيم من الارض . واما محيطها الاخلاقي فاوسع انتشارًا وامتدادًا حتى يوشك ان لا يُعرف لهُ حدٌّ يوقف عندهُ . وكذلك ارتقاء محيطها هي (اي اوربا) لا يخلو من كونهِ مديونًا لحدثات محيط اميركا المتعددة الجهات بل ان كثيرًا من المقاصد والتدابير التي يعزم الاوربي على اتخاذها للاعوام المستقبلة مبنيَّة على تأثير المحيط السابق لقرون عديدة . وعلى هذا الوجه يوضح التأثير العجيب الناشىء عن الحوادث التاريخيَّة السالفة في ارتقاء التمدُّن بواسطة تمازج الأمم المتباعدة البقاع المتباينة الاخلاق والطباع . وحسبنا شاهدًا على ذلك حروب الاسكندر وامتداد المملكة الرومانيَّة والفتح الاسلامي والحروب الصليبيَّة وسفرات كولمبس ومجلاَّن ودي غاما . ومما يلحق بذلك اختراع الطباعة وسرعة تواصل الافكار والآراء بازدياد سرعة المواصلات وما نشأ عن ذلك من ارتقاء المدنيَّة والحضارة بفضل الكهربائيَّة والبخار

قد ثبت لنا من تطبيق ما مرَّ من المبادىء المستخرجة على مجرى الحوادث التاريخيَّة العامّ امران الاول ان تنوُّع المحيط الاجتماعي هو الباعث على ملاحقة الامة لهُ في الاخلاقيات والعقليات . والثاني ان علة تنوع هذا المحيط هي ازدياد الاختلاط والامتزاج بين الأُمم التي كان شأنها الافتراق والانفراد . وذلك يمهّد لنا السبيل لشيء من التفصيل في اسلوب الازدياد في هذا الاختلاط المتبادل مبنيٍّ على المشابهة بين حياة الاحياء وحياة الاجتماع . وهذه المشابهة بين الحيانين هي الضالَّة المنشودة والغرض الاقصى الذي نرمي اليهِ في هذا البحث

اول امرٍ تنبغي ملاحظتهُ في هذا الشأن هو ان الاحياء الدنيا او ما يليها ليست الاَّ حُوَيصلات بسيطة فقد اوضح اهل العلم من تشريح المقابلة ان التقدم التشريحي في مملكتي الحيوان والنبات يقوم اولاً بانضمام هذه الحويصلات البسيطة الى مجتمعات اعلى بناء وتركيباً

وهذه القاعدة هي نفس ما يثبت تاريخ التقدُّم الاجتماعي بلا تخلف ولا شذوذ . واوضح دليل عليهِ ما ثبت للسر هنري ماين في ابحاثهِ عن آراء القدماء في المُلْك وصكوك المبايعات وحجج الوصيَّة المتوارثة وشرائع العقاب قال

"لم تكن الامة في قديم العصور كما هي اليوم اي عبارةً عن آحاد مستقلَّة الحقوق الشخصية انما كانت في حقيقة الامر مجموعاتٍ من العيال . واذا رمنا التحقيق في ايضاح الفرق عبَّرنا عنهُ بقولنا ان فرد ذلك المجموع كان عند الامم القديمة العائلة وهو اليوم الشخص الواحد . وفوق ذلك فان حكومة العائلة لم تكن تحظر استقلال الفرد فقط بحقوقهِ الشخصية بل كانت تمنع ايضاً سيادة الجمهور . فالحكم الوحيد كان لرئيس العائلة وسيّدها . وبعد ان خطا العمران بعض الخطوات جعلت العيال المتجانسة نسباً تتحد فتصير قبائل او عشائر اذ لم تكن الجامعة لذلك العهد سوى القرابة الدمويَّة . ثم لما تجاوز العمران هذه المرحلة اتَّسع نطاق هذه الرابطة فاخذ أدعياء هذه القربى ينضمُّون الى العشيرة بما كانوا يدَّعون من اتصال النسب بسالف الاجداد . وان المطالع ليجد أمثلةً لهذه الحال الاجتماعيَّة في انحاء مختلفةٍ من الارض ولا يزال يشاهدها في القبائل المتوحشة الباقية الى هذا العهد "

فمن هذا يظهر ان اسلوب النموّ والتكامل واحد جوهريًّا في ارتقاء الاحياء وتقدُّم العمران . فالدرجة الاولى الواضحة في تكوُّن الامم هي انضمام العشيرة او القبيل ويقابلهُ انضمام افراد الحيوانات الدنيا في مجموعات تزيد عنها بخصائص قليلة في البناء والوظيفة . ففي هذه الدرجة لا يبعد التركيب الاجتماعي الاَّ خطوةً واحدةً عن حال الاستبداد والتشويش الذي كان صفةً عامَّةً في حياة المتوحشين . فالتخوُّف والضغائن والاحقاد والمكايد والانتقام كانت خصائص

العلائق المتبادلة بين الناس في الدور الاول لاجتماعهم اي ان روح العداء كانت القاعدة المطردة والسلام شذوذاً عنها وفقاً لما سبق بيانهُ في بعض اقسام هذه المقالة من ان محبة الذات كانت العنصر المفرّق الغالب على المبدإ المقرّب الجامع

واما الدور الثاني في تقدم هذا الاجتماع فكان انضمام القبائل الى شعوب مدنيَّة اوسياسيَّة وقد طال أمد هذا الدور الاجتماعي ولم تزل آثارهُ في امتي اليونان والرومان حتى محاها التنوُّع والعلائق الداخلية وتكاثر الوظائف وتوزعها على ما عملت بما نشأ من تكامل تلك الفروع كما يعهد في شركات الاجيال المتوسطة ويشاهد على اتمهِ في شركات هذا العصر الصناعيَّة التي هي من اشهر مميزاتهِ

ثم ارتقت هذه الحال الاجتماعية الى درجةٍ ثالثةٍ وهي اتحاد الشعوب المتقاربة امماً سياسيَّةً ومثالهُ اتحاد الامة الفرنساوية بعد ان كانت مجموع مقاطعاتٍ مستقلة . وهذه الخطوة الثالثة ضرورية في شوط التقدُّم الاجتماعي المستمرّ . فقد اشرنا في خلال كلامنا السابق الى ان التعجُّل في اطراح مبدإ الاستقلال النوعي واتخاذ مبدإ الحكومة الشعبيَّة العامة قبل اتمام التهيؤ لهُ كان يقضي على الامم باضطراب الحال . ونزيد هنا شاهداً على ذلك من تاريخ اليونان فانهُ لما حاولت المدن البحريَّة ذاك الاتحاد العام تحت رئاسة اثينا لم يتسنَّ لها إبرامهُ بما اعترضهُ من الحروب البيلوبونيسيَّة دلالةً على ان مبدأ الحكم الذاتي كان لا يزال الى ذاك العهد متحكماً في نفوس القبائل وان روح التمدن الجامع للامة لم يكن بعدُ بالغاً طور القوة والنماء وكان اول ما ظهر من آثار هذا الطور في امة الرومان ذلك ان رومية بضمّها جميع القبائل المتفرقة على حدود بحر الروم تحت لواء الوطنيَّة الجامعة وبمحها الامتيازات الرومانيَّة تمَّت لها الغلبة الاخيرة على روح الاستقلال النوعي حتى اخمدت انفاسهُ ولم يستطع بعد ذلك حراكاً

ثم اخذ عنصر الوطنية الجامعة يتدرَّج في معارج القوَّة والاشتداد بما رافقهُ من تنوُّع النمو الداخلي المارّ الذكر حتى بلغ من النماء طوراً كان من اعظم المهدات في سبيل انتشار الديانة المسيحيَّة على ما مرَّ بك . فما لا مشاحة فيهِ ان العقل البشري لم يكن يحلم بامكان انتشار ديانة عامَّة بين الامم فضلاً عن الاقدام عليهِ لو لم تكن حال الاجتماع السياسية حينئذٍ قد اذنت بانقضاء مبدإ التفرُّق واعدَّت السبيل لدخول مبدإ الانضمام والاتحاد العام تحت لواء الامبراطوريَّة . ولو ان المسيحية ظهرت لاربعة قرون قبل ايامها لكانت بمثابة طريقةٍ اصلاحية منحصرة المكان كديانة البوذيين وكان طموحها الى ما وراء ذلك من ضروب العبث والمحال لوقوع دعوتها حينئذٍ على آذان غير مستعدَّة وقلوب غير معدَّة . ولو ان بولس قام قبل عصرهِ

وزار اثينا في ايام افلاطون وديوجنس لما أغنت بلاغةُ اليونانية ولا قريحةُ الشرقية فتيلاً . ولكن مبدأ الوطنية الجامعة الذي خلَّفهُ التمدن الروماني لمهد المسيحية هو الذي اعدَّتهُ العناية الفائقة سبيلاً لانتشار كلمتها وقدَّمتهُ رائداً امام دعوتها . فعلى اساس ذاك المبدإ الشريف أقامت مبدأ الاشتراك العام في الحقوق والواجبات بدلاً من مبدإ الاختصاص والاستئثار والامتياز الشعبي . وبفضل هذا المبدإ قام على خرائب الوثنية ذاك النظام الديني الباهر الذي خوَّل الكنيسة المسيحية ان تلقَّب بلقب الكنيسة الجامعة . هذا هو النظام الانساني الذي نشأ ودرج وترعرع وترقى في مراقي النموّ والكمال حتى بلغ ما هو عليهِ اليوم. فبعد ان كانت مصالح الخلق في هاتيك العصور الغابرة تجتمع في دائرة ضيقة الحدود هي القبيلة جعلت تمتد الى ممالك فسيحة الارجاء متباعدة الاطراف واصبحت طرق الحديد وسفن البخار واسلاك البرق تقرب المواصلات وتشدُّ اواخي الوفاق والاخاء "وتجعل المصلحة الذاتية عقدة عصبية للمواساة والاشتراك بالشعور" على ما قالتهُ جورج اليوت. هذا هو النظام الادبي الاعلى منية النفوس وكعبة الآمال وجنَّة الكمال . فبعد ان كانت الواجبات الادبية مجهولةً فيما سوى الطفيف ولم تكن تتعدَّى حدود العائلة او القبيلة كما سبق البيان اخذت في الظهور واتساع النطاق حتى صار كل فرد من اتباع هذا النظام يعترف بحقها عليهِ ازاء بني نوعهِ البشري واخوتهِ في نظر خالقهِ جل وعلا. فلم يعد تمدن هذا العصر الصالح يحصر دائرة الاخاء في المذهب والمعتقد والجنس واللغة وغيرها من روابط الاجتماع بل يعدُّ اخاً لهُ كل من شاركهُ في الانسانيَّة على الاطلاق فيوجب على نفسهِ اسعادهُ والعطف عليهِ فرض عين ويعدهُ وقف الذات على اصلاحهِ والاحسان اليهِ وفاء دين . ذلك هو دستور العمل عند المرتقين في الانسانية اليوم على ما في بعض اهلهِ من بعض الغفلة عنهُ والتقصير فيهِ لضعف في البشرية وبعدها عن الكمال . هذه هي المحجَّة العليا والطريقة المثلى لم تعرفها القرون الاولى ولا اعتمدتها الوسطى وانما هي من مفاخر التمدن الحديث

كذا قل عن مآل الصورة الادبية في الانسان اليوم فمثال الكمال الانساني في عصرك هذا غير ما كان عليهِ في العهد الاول للاجتماع . فبعد ان كان كمال الانسان القديم قائماً بشدة بأسهِ وحصر الرفق في شخصهِ وقصر الفخر على نفسهِ كبرًا وعتيًا يغضب لاقل بادرة ولا يصبر على خلاف لا يرعى حرمةً ولا يعرف رحمة فيغتصب كل ما طمحت اليهِ شهواتهُ وطالت اليهِ يداهُ اصبح مثال الكمال الحديث وديعاً حليماً شفيقاً كريماً يتحاشى اقل مظهر للمباهاة والازدهاء بطيء السخط صبَّارًا على مضض المناقشة والخلاف يحفظ حقوق الناس ويشاركهم في العواطف ويسوءهُ ازعاج اقل مخلوق حتى امست هذه الكمالات شرعة الانسانية من يحتذيها عُدَّ ملكاً

كريمًا ومن لا يقتنيها يقي حيوانًا بهيمًا مهما يكن شعار طريقته وأيًّا كان شعار حقيقته

وخلاصة القول ان الامور التي يشترك فيها ارتقاء الاحياء وتقدُّم العمران ثلاثة . الاول تقدم من صور قليلة مشتركة غير معينة الحدود الى صور كثيرة معينتها . الثاني استعداد مستمر في الحي وجسم الاجتماع للمحيط المرتقي . الثالث تكامل متواصل في المرتقي يتقدم به من مبدإ التفرُّق والانفراد الى الانضمام والاتحاد بين اجزاء المركَّب حتى يبلغ بناء واحدًا متلاحم الاجزاء

متري قندلفت

وصية فؤاد باشا

ازدان تاريخ الدولة العثمانية في القرن الماضي بذكر اربعة رجال عظام كان كلٌّ منهم نبراس الفضل ومصباح الهدى يؤتمُّ به ويقتدى عند تفاقم الخطوب واشتداد الاخطار "كأنهُ علم في رأسهِ نار" وهم رشيد باشا وعالي باشا وفؤاد باشا ومدحت باشا . كانوا دعاة الاصلاح وحماة الدولة وسياج السلطنة واركان عزها ومجدها . وقفوا حياتهم على خدمة الدولة والامة والوطن . وكانوا خير مثال يقتدى بهِ في الدفاع المجيد والسعي الحميد والجهاد الحسن

اما احدهم فؤاد باشا فقد قضى سنين طويلة في منصبي الصدارة ونظارة الخارجية على التعاقب واليهِ ينسب الفضل في صدور الامر السمي "خط همايوني" سنة ١٨٥٦ القاضي بوجوب مساواة رعايا الدولة العلية على اختلاف اجناسهم ومذاهبهم في الحقوق والامتيازات . ولهُ الوصية المشهورة التي رفعها قبل موتهِ بيوم واحد الى السلطان عبد العزيز سنة ١٨٦٩ وقد اطلعنا على ترجمة لها في مجلة القرن التاسع عشر الانكليزية فعرَّبناها في ما يلي ليسمع منها القراء صوتًا صارخًا من القبر يرنُّ في المسامع والآذان . ويسوق الى صاحبهِ الرحمة والرضوان من كل شفة ولسان

قال المرحوم فؤاد باشا : — "مولاي . لم يبقَ لي في هذه الحياة سوى بضعة ايام وربما بضع ساعات فاردت ان اقضي هذه الدقائق الاخيرة في اتمام فرض مقدس واعرض على جلالتكم افكاري الاخيرة المنعمة عمًّا واسفًا على سوء المصير الذي انتهت اليهِ الدولة بعد التمادي في سياسة الخرق والطيش . وعند ما تبلغ كلماتي مسامع جلالتكم اكون قد فارقت هذا العالم فتصغون اليَّ من غير ان يداخلكم ارتياب في حسن قصدي لان الصوت الذي يتكلم من القبر يتكلم بصدق واخلاص